السميائيات والبلاغة الجديدة

أحمد يوسف

جامعة وهران– الجزائر

لقد استكشفت الفلسفة بعامة والسميائيات الحديثة بخاصة ثراء المعرفة البلاغية بوصفها إنتاجا فكريا إنسانيا حيويا مفتوحا على عوالم اللغة سواء أكان ذلك على صعيد الطرح النظري أم على صعيد الطرح التطبيقي. مما خلصها من الثنائية التي كانت محصورة فيها بين نزوعها إلى المنطق والجدل وميلها إلى الشعر؛ ومن ثم إلى فن الكتابة؛ بينما أصبحت نظرية الخطاب قوام البلاغة الجديدة التي حاولت أن تستثمر السميائيات التداولية، وكذا التأويليات التي ترتكز على الفلسفة الفينومينولوجية. إن لكل فلسفة بلاغتها الخاصة من حيث هي خطاب مرتبط بشرط المواضعات الاجتماعية والتراكمات المعرفية.

انكبت البلاغة الجديدة من وجوه على مدارسة آليات الخطاب الاجتماعي العام وفعاليته العملية(1)؛ ومن هنا ألفيناها تلتبس التباسا واضحا بالحقل الذي تشتغل عليه التداوليات. إن هذا التيار البلاغي الجديد وجد ضالته أول مرة في العصر الحديث لدى فلاسفة القانون؛ إذ أراد أن يحقق ما عجز عنه المنطق لما بدأت تغلب عليه شقوة الصورنة المغلقة، وبعد الشقة بينه وبين الواقع، فولى ظهره للانشغال بالممارسات العملية؛ لهذا سنلفي الفلسفة التحليلية تعتني غاية ما يكون الاعتناء باللغة العادية، وتربط الكلام بالفعل؛ وهي بهذا تحدث انعطافا حاسما في تاريخ فلسفة اللغة الحديث الذي هو من وجه آخر تاريخ متنوع وخصب لعلم الخطاب بمناحيه المختلفة المنطوقة والمكتوبة والمرئية.

أعطى شارل بيرلمان دفعا كبيرا للبلاغة، فأعاد لها الروح من جديد؛ وذلك بالعودة إلى بلاغة أرسطو، ثم صارت تعرف على يديه بالبلاغة الجديدة التي انبثقت زمنيا قبل البنيوية والتداوليات، ولكن هذه الجدة كان لها تصور آخر في الممارسات التطبيقية لدى البلاغيين والنقاد؛ وعليه فقد تساءلت بربارا جونسن Barbara Johnson عن ذلك النوع من السلام الذي حل بالبلاغة بعد أن شنت عليها الرومانتيكية حربا لا هوادة فيها انتقاما من صنمية التقليدية حتى استردت حقها في العودة إلى حقل التفكير النظري(2)؟، وأضحت تقتحم تخصصات جديدة، وتتداخل مع سائر فروع العلوم الإنسانية مثل

التحليل النفسي والأنثروبولوجيا والفلسفة واللسانيات في الوقت الذي تتطلع فيه إلى تأسيس مفهوم "البلاغة العامة" كما طرحته جماعة لييج متجاوزة "نظرية الصياغة" ودراسة الأسلوب.

إذا سلمنا بتصنيف جان ماري كلينكنبرغ(3) من أن البلاغة الجديدة لها مسعى سنشير إليه بعد حين، أما المسعى الثاني الذي ركز عليه النقد الأدبي وبخاصة لدى علماء اللسان الذين كانوا يبحثون عن البنى اللغوية الخاصة بالأدب؛ وهذا لا يعنينا مباشرة في هذا البحث؛ لأننا نتوخى طلب الأنساق السميائية الدالة جمعاء. إن مجتمع الحداثة وما بعدها أصبح بمسيس الحاجة إلى إشباع التروع الحجاجي في معتركاته الفكرية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية والجمالية؛ إذ صار التروع الحجاجي ملازما لفضيلة التواصل من أجل تشييد مجتمع خال من الاستعبادين الفكري والاجتماعي؛ ذلك لأن الحجاج الذي ننشده هو الذي يكون سندا قويا للحوار ضمن قيم بلاغية تمجد الحرية، وتتطلع إلى آفاق الإبداع المفتوح، ولها إيمان راسخ بالأمل وقدرة الكائن الإنساني على استكشاف خامات الخير في عالم القيم الروحية على الرغم من فتامة الراهن وبؤس المصير وثقافة تمجد العنف، وتمارسه على المستضعفين في الأرض، وتبحث له عن مسوغات إيديولوجية وهمية.

لا يمكن التستر على ذلك التناقض الحاد الذي ألْفت البلاغة نفسها فيه بعد أن انخرطت في البرمجة السياسية متوخية فضيلة الإقناع، والعملية التعليمية طلبا للتبليغ المبسط؛ وهكذا طفقت تفقد خصيصتها البيانية بوصفها فنا عاما، فانحصرت في تجويد فن القول وتحسين الكتابة وتطريس اللغة الأدبية، ثم انكفأت على ذاتها انكفاء سلبها ديناميتها النصية، فارتكست في التبسيط والاختزال المدرسيين، وانطوت على نفسها ضمن حلقة التقعيد لتصبح فريسة سهلة للانقضاض عليها، والطعن عليها، والقدح في مشروعها العلمي. ولهذا لا بد من تقديم تساؤلات حول إبستيمية الشبكة المفهومية للبلاغة وإستراتيجيتها المعرفية بعد أن تحولت إلى مزيج غريب من التقليدية والحداثة؛ وبخاصة أنها أصبحت علما لا يستغنى عنه بسهولة في تحليل الخطاب وحتى في إبداع المفاهيم انطلاقا من الثنائية التقليدية (استعارة/مفهوم). لقد صارت البلاغة تتطلع إلى أن تكون لغة واصفة لخطابات اجتماعية متعددة مستعينة في ذلك بإنجازات الثورة اللسانية المعاصرة.

ولعل خير من يمثل هذه المفارقة في منظومة المفاهيم هو مقاربة البلاغة لخطاب بودلير الشعري، فهي من جهة تطمح إلى هذه العمومية بوصفها نظرية عامة للخطاب، ومن جهة أخرى كانت تنزع إلى تقاليدها القديمة في دراسة المجازات المتميزة مثل "مجاز المجازات" لسوشار (Sojcher) و"صورة الصور" لـــديجي (Deguy)، وكذا الاستعارة بمفردها التي ازدادت الدراسات تمركزا حولها. وهذا ما

يقع فيه حتى من يملك نية صادقة وإرادة معرفية صلبة من أجل تحديد شبكة المفاهيم للبلاغة العربية وتحديث جهازها الاصطلاحي حتى تستوعب الأشكال المختلفة للخطاب مثل الخطابات التربوية والسياسية والصحفية والتجارية والإشهارية والمرافعات القضائية. كما أنها تمتد إلى الإحاطة بأشكال التعبير الأيقوني بدءا من الكتابة إلى عالم الصورة، والوقوف على تحولاتها الاجتماعية والجمالية ضمن حضارة الصورة التي فرضت أدبيات جديدة في الحوار.

هل نستطيع القول: إن الانتماء إلى الحداثة وما بعدها هو انتماء إلى بلاغة السميائيات الأيقونية التي أحدثت تحولات عميقة في خطاب العلوم الاجتماعية والإنسانية على السواء بله الانفجار الحاصل في مجالات التقنيات الرقمية الحداثية؟! كل ذلك أكد واقعا فحواه: أن السيادة لم تعد وقفا على جلال العلامات اللسانية، بل أصبحت الأنساق السميائية الدالة الموضوع الأثير للسميائيات الذي يجمع أنماط العلامات المختلفة؛ حيث انفتح الواقع الإنساني على فضاء الحوار الذي أتاحته سبل التواصل الميسورة مما أدى إلى عودة آداب المناظرة، فازدهر عصر المحاجة؛ غير أن الحجاج لم يعد يكتفي بالوسائل التقليدية في بسط حججه، فاستعان بالأسنن التي توفرها عوالم الصورة؛ إذ انخرطت ثقافة العين انخراطا بصريا في آداب الإقناع، وفي ظل شفوية جديدة بسطها مجتمع ما بعد الحداثة.

ولما كان حد البلاغة العام يتمثل في "فن القول" و"فن الإقناع" الذي أملته مجتمعات الحداثة وما بعدها بالترسانة الضخمة لوسائل الإعلام والاتصال؛ إذ لم تخرج مقاربات البلاغة عن إطار التحليل السميائي للخطاب الذي يسعى إلى البحث عن كلياته وقوانينه وأنساقه ومعرفة أجزائه؛ بحيث يتم تقطيع الوحدات الخطابية تقطيعا يحاكي الإجراء اللساني الوصفي، ويتجاوزه في الآن نفسه؛ لأنه يتعدى حدود الجملة. ومن هذا المنطلق تم النظر إلى البلاغة على أنها فرع من الخطاب، إن لم تكن نظرية للخطاب إذا نجحت في تركيب بعض الآليات المنهجية التي تتقاطع معها مثل اللسانيات والأسلوبيات والشعريات والسميائيات على وجه التحديد؛ بحيث يتسع حقلها الإجرائي إلى جميع أفانين القول.

تصبح البلاغة هنا -بهذا المفهوم- مرادفة للسميائيات من حيث هي هندسة ذهنية لعوالم اللغة والفكر. إن خطاب الإقناع لا يعني فقط إجراء سبر استقرائي والقيام بعمليات حسابية، ولكن ينضاف إليها بسط الحجج؛ وهكذا غدت البلاغة الجديدة حجاجية في منطلقها وعمومية في متصوراتها وبرهانية في حقيقتها؛ فهي تقتدي من وجوه بمسارات اللسانيات من حيث إنها لا تكتفي بالوقوف على بلاغة لغة بعينها، وإنما تطمح لوضع قوانين عامة تشمل جميع الأنساق السميائية الدالة بوصفها لغات. هل ما يحصل للبلاغة هو مجرد تجميل وزينة لتواكب حركة التغيير الجذرية في خطاب الحداثة أم هو فعل ذو

خصيصة انقلابية في المفهوم والإجراء؟ وهل يمكن أن يساورنا بعد ذلك بعض الشك في الدعوى التي أذاعها ش. بيرلمان من أن البلاغة ما هي إلا حجاج؟

ولا غرو أن البلاغة كانت تتضمن طاقة حيوية في داخل أبنية خطابها سرعان ما توارت في سيرورة الاتباع، فنضبت طاقتها الحيوية بفعل الاجترار الذي يعود إلى السياسة والتعليم على وجه التحديد؛ وعليه فإن البلاغة الجديدة لا يمكن النظر إليها على أنها عملية طلاء لوجه أهكته السنون، وأفسده الدهر؛ وإنما هو حركة تثوير في المفاهيم لتطاول سائر المجالات الاجتماعية، وتغدو علما وصفيا يرنو إلى المستقبل، ويتسع لجميع الخطابات متخليا عن الروح المعيارية التي ألجمت جموحه الإبداعي.

لقد كان الحجاج يطمح إلى مقاربة الخطاب الفلسفي في جوهره مقاربة تولي شطرها إلى التداوليات قصد الوقوف على آلياته وقدرته على الإنجاز وتحويل اللغة الفلسفية إلى فعل؛ وعليه فإن التفاعل من جهة والتعاون من جهة أخرى يصبح قوام صناعة المعنى وفهمه وإنتاجه وتأويله؛ وبذلك يتجاوز الإطار الضيق لمجالات الصياغة. وهذه الغاية لا بد من تضافر علوم عدة بغية تحقيق هذا المقصد الشريف، ومن هذه العلوم علوم اللغة (اللسانيات والدلاليات والمعجميات والأسلوبيات..إلخ) والسميائيات بتشعب اتجاهاتها والمنطق (الصوري والرمزي على السواء) والفلسفات الفينومينولوجية والتأويليات والإنسانيات (علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجية) والعلوم المجردة وعلى رأسها الرياضيات.

التحديات المفتوحة

واجهت البلاغة منذ القديم تحديات مفتوحة لكونها ارتبطت باللوغوس في مدلولاته المتعددة سواء أكان خطابا أم عقلا، ولا نقف سوى على ذلك التداخل بين الخطاب والعقل؛ لأن الخطاب تمظهر للعقل، وأن العقل يتحين في الخطاب. على الرغم من أن هذا التداخل لا يمكن تصوره بهذه البساطة المطروحة. إنه يشكل معضلة فلسفية تقابل إشكالية المعرفة (العقل) والمنفعة (الخطاب) التي كانت تؤرق يورغن هابرماس المنهمك في تقديم تصورات وحلول للمشكلات الكبرى للفلسفة المعاصرة ضمن إطار الحوار المثالي الذي يفترض أن يكون المجتمع خاليا من أي استعباد، ونرى أن هذا الحوار المثالي لا يتجسد إلا في بلاغة متحررة من الهيمنة الإيديولوجية ومن خطاب اللاعقل ومنفتحة على التواصل في سياقاته الاجتماعية والحضارية.

فمن الصعب فصل الإيديولوجية عن بعدها التاريخاني؛ لأن إنتاج الدلالة ذاتها هي سيرورة إيديولوجية؛ وهو ما انكبت على مدارسته جوليا كريستيفا. إن الإيديولوجية وبلاغتها لا مأوى لها

سوى فضاء العلامات وآليات تناسلها؛ وعليه عدت السيميائيات التحليلية (Sémanalyse) هي علم الإيديولوجيات؛ لأنها تقتحم كل موضوعات مجالات المجتمع والفكر مما يؤهلها لدراسة قضايا العلوم الاجتماعية والبحث عن قرابتها مع الخطاب الإبستيمولوجي(4). ومما يدعو إلى التأمل هو كيف تم استثمار البلاغة القديمة لكي تعالج مسائل متعلقة بخطاب الحداثة، ونعني به بلاغة الصورة التي أصبحت غير منفصلة عن إشكالات المعنى، بيد أن الطرافة في ذلك كما يرى روبول(5) أنها تتناول هذه الأشكال الخطابية وفق منطلقات لغوية بالمفهوم القديم ولسانية بالمفهوم الحديث. ولا غرو أن يراهن بيرلمان على بلاغة أرسطو لكونها ذات مصداقية حجاجية فعالة في المجتمعات الديمقراطية الحديثة.

يقود هذا التحدي إلى تلك المسألة التي كانت تحير هابرماس وهو ينشد إقامة صلح دائم ما بين النظرية والتطبيق ضمن دائرة التواصل التي راهنت عليها التداوليات العامة. والواقع أن هابرماس – بوصفه امتدادا متطورا لمدرسة فرانكفورت التي شيدت الفلسفة النقدية بفضل ماكس هوركهايمر– كان يأمل أن ينقذ خطاب "العقل الخالص" من هيمنة الإيديولوجيا واستسلامه لقهر التشيؤ، ويقيم حوارا نقديا يأخذ في حسبانه البعد التواصلي ضمن عالم أصبحت تهيمن عليه السلبية négativité وجمالياتها كما تناولها أدورنو t Adorno.

لقد كانت بلاغة الفلسفة النقدية تؤشر في كتاباتها الجمالية لدى أدورنو على وجه التحديد على تشخيص حالة "المابين" التي تعيشها الإنسانية بين خطاب الأمل وخطاب اليأس؛ وذلك ما نقرأه في أدب كافكا وغيره، كما أنها تستكشف –أيضا– طبيعة التحديات التي كانت تواجهها البلاغة، وهي ترثي "وضع السعادة البائس" في ظل مجتمع شيَّأ العقل، وسلم أمره لسلطة الإيديولوجيات، وافتقد عنصر الحوار وافتقر إلى التواصل، وتاليا عنصر المبادرات الخلاقة. إن أدورنو بدوره كان يريد أن يقوض مفهوم الجدل لدى هيجل ليقيم أسس "الجدلية السلبية" المبطنة بالأفكار الذاتية على هرم فلسفة الحداثة التي شيدتها الهيجلية. على الرغم من أن الفلسفة النقدية كان تحدوها رغبة متضخمة في تأمل وضع إنساني أقل ما يقال عنه أنه مثير للشفقة.

إن ما يمكن الوصول إليه من خلال هذا التقديم أن مقاربة البلاغة مقاربة محايثة لا معنى لها إن هي انخرطت في جدل العقل والخطاب؛ ولا بد من مساءلة نسقية البلاغة ومدى تأثير إكراهات الخارج في تحولات النسق؛ وعليه يرشدنا بيير كانتز(6) إلى أن طرح المشكل داخل حدود البلاغة هو طرح لمشكل المركز؛ وذلك بغية مقاربة حدود البلاغة ورهاناتها مقاربة علمية.

هناك من لا يعتقد بأن البلاغة كانت في يوم من الأيام نسقا مستقلا بنفسه، وإنما كانت على الدوام تجربة تأملية حول الكلام(7). ولعل ذلك ما دفع إيكو(8) إلى القول إن السميائيات التطبيقية لا يتعلق مشكلها بمدى علميتها أكثر مما يتعلق بقوة إقناعها البلاغي، وفاعلية فهم النص والقدرة على جعل الخطاب حول نص معطى قابلا للمراجعة في ظل تداخل الذوات في أثناء عملية النشاط التأويلي.

تجنيس الخطابات وتهجينها

من الواجب التذكير والتنويه بالدور الذي أدته البلاغة في مجال تصنيف الخطابات؛ ولعل ذلك ما كان يلتقي مع مسعى السميائيات في إنتاج النماذج والنظريات كما تشير إلى ذلك جوليا كرستيفا من جهة وشكلنة الأنساق السيميائية الدالة من جهة أخرى، فإن أرسطو كان سباقا إلى تصنيف الأشكال الخطابية وفق انشغالاته المعرفية التي شملت البرهان والجدل والسفسطة والخطابة والشعر؛ ولا غرو أن نلفي جل الخطابات البلاغية حتى العصر الحديث عيالا على فلسفة أرسطو التي حصرت المحمولات في "الجنس والخاص والتعريف والعرض" بينما حصرها فورفريوس في خمس بعدما أقصى التعريف وأضاف الاختلاف لتصنيف أرسطو "الجنس والنوع والاختلاف والخاص والعرض"(9)الذي كانت آراؤه مستوحاة من الأفلاطونية بخصوص النوع الذي لم يلتفت إليه أرسطو. أثْرت شجرة فورفريوس الخاصة بالتعريف في مؤلفه الشهير "إيساغوجي" ما طرحه أرسطو وكان أمبرتو إيكو قد وقف عليها في كتابه "السميائيات وفلسفة اللغة".

صارت البلاغة علما عاما لجميع الخطابات بغية الوقوف على أدبياتها وقوفا واصفا، وهو ما يتطابق مع مشروع النظرية السميائية وتحليل الخطاب؛ وذلك ما جسدته تطبيقات جماعة مو حول الخطاب البصري الذي كان رولان بارت قد خصص مقالا لبلاغة الصورة في مجلة "تواصل Communications" رقم: 4؛ حيث صارت البلاغة –في تصوره– تخرج عن حد الصور المجازية والزخرفة الفنية وتطريز الأساليب والتفنن في البديع، وتمتد إلى القضايا التي تشملها فلسفة اللغة، وتنخرط في التأملات الفكرية؛ لهذا وصفها بارت بأنها لسانيات (ذهنية) عامة. ((فهي تتعلق (بكل اللغة) كما أنها (لغة الكل)(10)، ثم سرعان ما توالت البحوث في هذا الاتجاه الجديد؛ حيث تناول –أيضا– جيرار جينات علاقة البلاغة بفضاء اللغة ضمن دائرة أعمال جماعة تيل كيل Tel quel التي حاولت أن تجسد التعالي عن الذات في مسعاها النظري، ولكن قدم(11) نقدا شديدا لطرائق تعليم البلاغة التي لم تتزحزح عن وضعيتها القديمة، وسرعان ما انتهت نسقية جينات إلى مقاربة الجماليات.

مازالت البلاغة بوصفها تفكيرا تقاوم أسباب فنائها، و لم تكن فكرة موت البلاغة إلا تعبيرا عن ذلك التبرم من الممارسات التي غلبت عليها المعيارية والتحجر على النحو الذي نلفيه في المدارس الثانوية وحتى بعض المعاهد الجامعية؛ بيد أن البلاغة أصبحت تقدم نفسها على أنها العلم المستقبلي لتحليل الخطاب ليشمل الحجاجية ذات التزوع المنطقي واللساني والأسلوبيات والسميائيات النصية.

إن فون دايك يقدم "علم النص" على أنه ضرب من العصرنة للبلاغة. فهي لم تعد حبيسة النظرة الجمالية المعيارية، بل صارت منفتحة على كل ما يتضمنه الخطاب بما في ذلك القضايا التي تصطرع في المجتمع؛ ولهذا ألفيناها تدخل دائرة الاستعمال الواسع مثلها مثل مصطلح اللغة والشعر، واستطاعت أن تجدد نفسها ضمن المناهج النقدية المنضوية تحت القراءة النسقية مثل: النقد الجديد والبنوية والشعريات والسميائيات والتداوليات كما ألمحنا سالفا.

وانطلاقا من إعادة قراءة فرويد من قبل لاكان تحول اللاشعور من الحلم إلى اللغة، وصار مدار التحليل النفسي عند لاكان. فمن خلال الخطاب يتجلى اللاشعور. فالحلم كان بالنسبة إليه مبنين مثل الجملة. وقد خلص إلى صيغة جديدة وبسيطة في آن واحد للاستعارة.

$$\frac{F.\ ()) \cong S\ (+)\ S}{S}$$

لقد ولج التحليل النفسي إلى الخطاب بفضل مكنسة "مرحلة المرآة"، فصار اللاشعور هو خطاب الآخر الأكبر الذي يمكن استكناه مستوياته الثلاثة:

1- المستوى الرمزي: ويقوم ببناء الوجود في الواقع دون خلق الواقع ذاته.

2- المستوى الواقعي: وهو المكان الذي تسجل فيه العملية الرمزية فشلها.

3- المستوى الخيالي: ويقوم على الوهم والتغيير المفاجئ، والتنوع الطارئ.

وعليه فإن الدال (اللغة) -في تصور لاكان لا ينبغي أن ينتظر منه لكي يخلق الواقع (المدلول)، أو يرمز إليه، فهو يتصف بالوجود القبلي. إن سيرورة توليد الواقع في الخطاب تنتج المدلول (الواقع) وفق ما هو محدد في قوانين اللغة الشكلية.

تقوم الاستعارة على مفهومي التكثيف (التركيز) والانتقال (الاستبدال) اللذين هما مصطلحان فرويديان يقابلان لدى جاك لاكان الكناية أو المجاز المرسل والاستعارة. فقد استبدل المقولات الفرويدية التي كانت تمثل أدوات إجرائية في تفسير الأحلام بمقولات بلاغية اصطنعها رومان ياكبسون في أبحاثه اللسانية. لقد صار مفهوم الرغبة لدى فرويد هو المجاز المرسل لدى جاك لاكان الذي يقوم بتعويض الأب، ويتجلى بواسطة الدال الملائم مباشرة، ويلمح إلى هذه الرغبة بواسطة دال يرتبط بالدال

السابق بشكل أو بآخر، وهذا يترتب عنه بناء الرغبة بناء لامعقولا ومنحرفا ومشوها يتخذ صورا غير مألوفة وغريبة. ويقدم جاك لاكان الاستعارة في شكل معادلة رياضية صيغتها على النحو الآتي:

$$F_{(\ldots \acute{S})}\, S \cong S_{(___)}\, S$$

حيث تشيرŚ إلى الدال الأصلي، وS إلى الدال الاستعاري، وبناء على ما سبقت الإشارة إليه فإن الاستعارة تمركزت في دائرة خاصة؛ إذ ينبثق المعنى من اللامعنى. وهذا مبحث جليل في دراسة المعنى كانت البلاغة قد انشغلت به منذ أمد بعيد، وهي تلتقي بالمنطق في مبحث الخطابة والشعر، كما أصبحت فلسفة اللغة والنظرية السميائية توليها عناية أكبر.

كانت البلاغة أقل بلاهة كما يقول الأسلوبيون، لا أحد يعتقد جادا بأن المسألة تتعلق بجمع حطام البلاغة وبقاياها المتناثرة، لهذا رفضت جماعة مو كل تلفيق في مجال الدرس البلاغي، وتنظر إلى دعاوى شارل بالي Charles BALLY الذي حاول أن يتحدث بها عن تلك المصطلحات التقنية التي اتسمت بها البلاغة المعيارية فكانت تنفر القارئ أكثر مما ترغبه في تقبلها. فأكثرت من المصطلحات، وبالغت في التدقيق إلى حد الصنعة المتكلفة والتحذلق، وباتت غير مستساغة كالاستعارة الاضطرارية (Catachrese) والمجاز التعارضي (Hypallage) والمجاز المرسل (Synecdoque) والكناية (Métonymie).

لا يكاد يرادف مصطلح البلاغة الجديدة مصطلح الأسلوبيات كما قد يلتبس على بعض الأفهام؛ إذ إن صفة الجدة التي اتصفت بها البلاغة في الثمانينيات من القرن العشرين جاءت بديلا للإقصاء الذي مارسه المنطق ذو النزعة التجريبية على البلاغة الموروثة عن التفكير الفلسفي القديم (سقراط وأفلاطون والسفسطائيون) والتراث المنطقي (أرسطو وأشياعه)، وكذلك العجز الذي أصاب الأسلوبيات الحديثة بعد ظهور الثورة الرومانتيكية. ومن هنا سعى بيرلمان إلى استكشاف عورات النزعة الوضعية وعجز المنطق الصوري في دراسة إشكالية "القيمة"؛ وفي الوقت نفسه البحث عن منطق لأحكام القيمة.

هل يمكن لهذا المنطق أن يحتفظ بعقلانيته وهو يتأمل موضوع أحكام القيمة التي تحيل بداهة على كل ما هو انفعالي وعاطفي وغير مبرر من الناحية العقلية؟! لا يتردد بيرلمان في إمكانية تأسيس هذا المنطق لأحكام عن طريق "مشروع البلاغة الجديدة" بحيث يتخلى الإرث البلاغي عن الروح الاختزالية التي ظلت تسم طريقة البرهان الشكلية من جهة وأفانين الإقناع من جهة أخرى. وهكذا يدفع بيرلمان البلاغة الجديدة لتقتحم المعاني الفلسفية التي تعالج موضع "القيمة" مثل الشر والخير والعدل والظلم والحرية والاستبداد والديمقراطية والديكتاتورية. وتاليا نحن في صميم البحث الفلسفي من زاوية

أنطولوجية. وشبيه بهذا الأمر حصل للبلاغة العربية في عصورها المتأخرة التي طوقتها المعيارية حينما طغت عليها الشروح وشرح الشروح بدل الإبداع الذي كان الأساس في نشأتها، فأضحت فنا عقيما لا يغري الباحثين في طلبه والإقبال عليه.

لقد تفاعلت البلاغة أو على الأصح وجدت البلاغة نفسها في فلك لم تعهده من قبل عندما ظهرت العلوم الإنسانية التي أنقذتها من مأزقها، ونقلتها من عالم ضيق إلى عالم أرحب، فانخرطت ضمن التحولات الاجتماعية التي لازمت خطاب الحداثة وما بعد الحداثة في المجتمعات الغربية وتجلياتها في المجتمعات المتخلفة سواء أتمثل ذلك في العلوم التي خلخلت المفاهيم السائدة، وزحزحتها عن أبراجها اليقينية (الرياضيات والفيزياء والبيولوجية) أم في التقنيات التي أبدعت خطابات جديدة فرضت بدورها بلاغة غير معهودة في التراث اللغوي والبلاغي القديمين.

وليس أدل على ذلك التحول الكبير الذي حصل في أمبراطورية الصورة التي أجهزت على بقايا الشفوية العتيقة، وأبدعت شفوية معاصرة قوامها تقنية الصناعة الفنية التي ساعدت على الانتقال من ثقافة الأذن إلى ثقافة العين(12). فأضحت البلاغة البصرية عماد السميائيات المعاصرة(13)، وكذا البلاغة العامة(14). فلم يكن يدور بخَلد البلاغي أن تتحول البلاغة من مقوم جمالي خالص أو من استدلال منطقي صالح أو فاسد على العموم إلى رحابة دراسة رغبة الإنسان وحلمه وإيديولوجيته الاجتماعية وطبائعه وميوله كما نقف عليها لدى فرويد وجاك لاكان، وعلماء الاجتماع.

لقد اهتم أولئك بالعلاقة التي تربط البلاغة بالإيديولوجيا قصد الوقوف على مظاهر التعبير عن حاجات المجتمع الجديدة؛ حيث بات يطالب بأشكال أخرى من التواصل لها القدرة الساحرة على التأثير في الأفراد والمجتمعات لما تمتلكه من وسائل إعلامية ضخمة بدءا من السلطة الرابعة (الصحافة المكتوبة والمرئية والمسموعة والإلكترونية) وانتهاء بعظمة الفنون من مسرح وسينما وتشكيل ونحت ورقص وعمارة وما إلى ذلك من فنون تشكل خصائص الثقافات وأصالة الحضارات القديمة والحديثة على السواء. وهي ترسم بدورها بلاغة كل فن؛ ومن ثم بلاغة كل ثقافة.

ولا غرو إذن أن نتحدث الآن عن بلاغة الثقافة الإلكترونية بما تتيحه من مساحة غير محدودة من الحرية. ومن هنا تستمد عموميتها التي لم تعرف جماعة مو كيف تدافع عن دعواها حول تعميم البلاغة أو عموميتها، وتركت الانطباع لدى القارئ بأنها مجرد نظرية للخطاب محصورة في دراسة الصور والمجازات، ولكي تتصف البلاغة بالعمومية ينبغي أن تشمل كل الصور البلاغية وجميع أشكال الخطاب، ولا تكتفي بالتركيز على الاستعارة بوصفها الصورة المركزية في الدرس البلاغي. فالعمومية

تكاد ترادف "أنحاء" الخطاب وأشكال الصور؛ لهذا فهي تمتد إلى ما وقفت عليه فلسفة إرنست كاسيرر حول الأشكال الرمزية من لغة وأسطورة ودين وفن وثقافة إلخ وكل الأنساق السيميائية الأساسية بما في ذلك الأيقونية البصرية التي شهدت انتشارا واسعا في خطاب ما بعد الحداثة.

وهكذا تصبح البلاغة علما معاصرا متجددا له منزلته في دراسة الخطابات الاجتماعية والأشكال الأولى للتفكير المنطقي؛ وذلك ما حاولت الأسلوبيات النفسية/ الاجتماعية أن تضطلع به بغية الوصول إلى بناء نظرية حول "رؤية المؤلف الخاصة للعالم" كما اجتهد في ذلك هنري موير. وقد كانت دراسة الأسلوب في بعض مواصفاتها عند البلاغيين مبنية على أساس طبقي. فلكل طبقة اجتماعية أسلوبها الخاص مثل الأسلوب البسيط الذي يعرف به الكفار(15)، ونظمت به قصائد ريفية (Bucolique) والأسلوب المتوسط وعادة ما يختص به التجار والصناع والحرفيون، ونظمت به القصائد الزراعية (Geogique)، بينما للطبقة العليا كالقواد والنبلاء والأمراء وأهل الفكر والأدب. فلهم أسلوبهم الراقي، ويتجلى في ملامح الإنياذة (Eneidé). لقد انحصرت البلاغة في الابتكار والترتيب والصياغة، وتلك السمة الجوهرية للبلاغة التقليدية، ومن آيات التحول في بلاغة شيشيرون أنها ثارت على طرائق تعليمها في المدارس، وحاولت أن تجدد في عنصر الصياغة، إلا أنها كانت في الآن نفسه مخلصة للأرسطية؛ وما لبثت أن ظهرت في القرون الوسطى دعوى الأساليب الثلاثة في عجلة فرجيل (الأسلوب البسيط والأسلوب السامي والأسلوب المتوسط).

بدأ التفكير في هيكلة البلاغة القديمة وإعادة بنائها من جانب موضوعاتها ومنهجيتها على ضوء تطور مناهج العلوم الإنسانية؛ ولعل ذلك ما جعل الأسلوبيات الحديثة لا تتوقف عند حدود التجديد، وإعادة بناء صرح البلاغة، ولكن أعلنت عن موتها، واستبدلتها بميلاد علم كفيل بأن يحول إرثها إلى نظرية جديدة، ويتجاوز رسومها ومتصوراتها، وينشئ مفهوما حديثا يعنى بعوالم الأسلوب وإجراءاته؛ وهكذا تهاوت البلاغة المعيارية وتفريعاتها المختلفة من عليائها، وانبثقت متصورات البلاغة الجديدة التي تتماهى مع السيميائيات في كونها لغة واصفة لخطابات المجتمع.

1- Jean-Marie Klinkenberg, Précis de sémiotique générale, p. 259.

2- Barbara Johnson, Défigurations, In Frontières de la rhétorique, Littérature? n° 18, mai 1975, p. 100.

3- Jean-Marie Klinkenberg, Précis de sémiotique générale, p. 259.

4- J. Kristeva, Sémiotiké, Recherche pour une sémanalyse, éd. Seuil, Paris, 1969, p. 25.

5- O. REBOUL, La Rhétorique, pp. 32-33.

- Voir -7 L'Enjeu des rhétoriques, in Frontières de la rhétorique, Littérature, n° 18, mai 1975, p. 3.-6
Marc FUMAROLI, (sous la dir. De) Histoire de la rhétorique dans L'Europe moderne 1450-1950, éd. PUF, Paris, 1999, p. 16.
- Umberto Eco, Sémiotique et Philosophie du langage, éd. PUF, Paris, 1988, p. 11.-8
- Ibid, p. 94. -9

10- رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر. عمر أوكان، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 1994، ص. 6.

- Gérard Genette, Figures II, éd. Seuil, Paris 1969, p. 41.-11

12-- ينظر أحمد يوسف، عالم الصورة وثقافة العين، مجلة العربي، الكويت، ع. 491، 1999. لقد أصبح هذا المقال ضمن المقررات التعليمية في جامعة اليرموك بالأردن في كتاب موسوم بـــ،لغة الحياة.

13-- ينظر أحمد يوسف، التحولات السيميائية- الخطاب البصري، مجلة كتابات معاصرة، لبنان، ع. 32، 1998.

- Voir Groupe mu, Iconique et plastique, sur un fondement de la rhétorique visuelle. In rhétorique, -14 sémiotique, éd. 10/18, Paris, 1979.

15-المقصود بهم الزراع.

صدور العدد الثاني من مجلة سميائيات